إيران والعجز عن ابتلاع العراق

عراضة مسلّحة للميليشيات الموالية لإيران في بغداد

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

مرّة أخرى تحاول إيران التأكيد أن العراق لن يفلت منها وأنّ لا عودة إلى ما قبل العام 2003 عندما سلمتها إدارة جورج بوش الابن أحد أهمّ البلدان العربيّة على صحن من فضّة. كان عليها إنزال ميليشيا عراقية تابعة لها إلى شوارع بغداد قبل أيّام من أجل ترهيب كبار المسؤولين العراقيين. لم تنجح في ذلك. يعود الفشل الإيراني إلى وجود وطنيّة عراقية تكوّنت مع الوقت واستعادت حيويتها بفضل المكوّن الشيعي العربي أوّلا.

مرّة أخرى يلعب النظام الإيراني لعبة السعي إلى السيطرة على العراق من منطلق أن مستقبله في هذا البلد وليس في مكان آخر. هذا ما يفسّر تلك الاستماتة الإيرانية من أجل بقاء العراق دولة خاضعة لـ"الجمهورية الإسلاميّة" عبر ميليشياتها المذهبيّة. لم تكن هناك من انطلاقة جديدة للمشروع التوسّعي الإيراني إلّا من العراق الذي دخلته الميليشيات العراقية التابعة لإيران على دبّابة أميركية مع سقوط بغداد في التاسع من نيسان – أبريل 2003.

العراق يظلّ بالنسبة إلى إيران الجائزة الكبرى التي حلمت دائما بها وما زالت تحلم بها. بفضله استطاعت توفير حياة جديدة لمشروعها التوسّعي الذي توقّف في العام 1988 عندما اضطر آية الله الخميني إلى «تجرّع كأس السمّ» ووقف الحرب مع العراق

يظلّ العراق بالنسبة إلى "الجمهورية الإسلاميّة" الجائزة الكبرى التي حلمت دائما بها وما زالت تحلم بها. بفضل العراق استطاعت إيران توفير حياة جديدة لمشروعها التوسّعي الذي توقّف في العام 1988 عندما اضطر آية الله الخميني إلى "تجرّع كأس السمّ" ووقف الحرب مع العراق. تحقّق شبه انتصار عراقي وقتذاك. بينما ساهم في تحقيق شبه الانتصار في حرب مكلفة بالرجال والعتاد والأموال تصدّي العراق لعملية "تصدير الثورة الإيرانية". أرادت إيران اجتياح العراق من منطلق أنّه كان يشكّل هدفا سهلا. تبيّن من خلال حرب السنوات الثماني أن سقوط العراق ليس بالسهولة التي يتصورّها النظام الإيراني الجديد الذي قام بعد سقوط الشاه.

فوق ذلك كلّه، تأكّد مع مرور الوقت أن النظام في إيران لا يعرف الكثير عن العراق. يستطيع هذا النظام الاستفادة من كلّ الأخطاء التي ارتكبها النظام السابق الذي كان على رأسه صدّام حسين بعقله الريفي وثقافته البعثية المتواضعة، وهي أصلا ثقافة تبسيطية تمنعه من فهم المعادلات الدوليّة والإقليمية. ما لا يستطيعه النظام في إيران هو استيعاب ما على المحكّ في العراق وأنّ الوضع فيه أكثر تعقيدا مما يتصورّه نظام يمتلك الدهاء والحنكة والمعرفة في كيفية الاستثمار في الغرائز المذهبيّة لكنّه لا يمتلك نموذجا قابلا للحياة يستطيع تقديمه إلى محيطه وما هو أبعد من هذا المحيط.

ترفض إيران في 2021 الاعتراف بأنّ العراق هو العراق وإيران هي إيران وأنّ الحدود بين البلدين وجدت لتبقى. ليست العراضة المسلّحة التي قامت بها في شوارع بغداد قبل أيّام عناصر تنتمي إلى ما يسمّى "ربع الله" مجرّد تمرّد منعزل عن سياسة إيرانية تستهدف منع العراق من أن يكون سيّدا لقراره.

ثمّة هدفان لهذه العراضة التي تبرّأ منها حتّى رجل دين يمارس السياسة كان محسوبا على إيران مثل مقتدى الصدر. يتمثّل الهدف الأوّل في إجبار رئيس الوزراء مصطفى الكاظمي على إطلاق نحو مئة معتقل ينتمون إلى ميليشيات أوقفهم الأمن العراقي على دفعات في قضايا مرتبطة بتنفيذ اعتداءات على أهداف أميركية وغير أميركية.

أمّا الهدف الثاني، فهو يعكس رغبة إيرانية في بقاء العراق معزولا عربيا والحؤول دون استضافته لقمّة ثلاثية ستجمع قريبا بين مصطفى الكاظمي والرئيس عبدالفتاح السيسي والعاهل الأردني الملك عبدالله الثاني. لم يعد مقبولا إيرانيا أن تكون بغداد عاصمة تعقد فيها لقاءات عربيّة. مفروض في العراق أن يسير في الخط الذي ترسمه له طهران. هذا ما رفضه رئيس الوزراء العراقي الذي بعث برسالة واضحة إلى المعنيين في طهران بأنّه يرفض الرضوخ لما تطلبه ميليشيا مذهبيّة من جهة وأن يكون مجرّد منفّذ لأوامر يصدرها "المرشد" الإيراني علي خامنئي من جهة أخرى.

ليس سرّا أن الرئيس العراقي برهم صالح ورئيس الوزراء ليسا معاديين لإيران، لكن الكردي (رئيس الجمهورية) والشيعي العربي (رئيس الوزراء) يثبتان مجدّدا أنهما عراقيان أوّلا وأن عليهما السعي إلى تلبية مطالب العراقيين والاستجابة لطموحاتهم في بلد يحتاج النظام فيه إلى إعادة تشكيل كاملة في ضوء التجارب الفاشلة التي مرّ فيها منذ العام 2003.

ما كشفته التجارب التي تلاحقت منذ سقوط النظام السابق أن الأمل غير مفقود باستعادة العراق وضع الدولة السيّدة من جهة وأن الثنائي برهم صالح – مصطفى الكاظمي ما زال يقاوم من جهة أخرى. يقاوم الثنائي من أجل التأسيس لعراق جديد لا يكون مجرّد تابع لإيران، لكنّه ليس بلدا معاديا لها في الوقت ذاته.

الأكيد أن هناك عوامل داخليّة عدّة وتعقيدات كثيرة تعمل ضدّ إعادة تأهيل العراق المستمرّ في انفتاحه على دول الخليج العربي. يدلّ على التوجه نحو الانفتاح الاتصال الأخير بين العاهل السعودي الملك سلمان بن عبدالعزيز ومصطفى الكاظمي والدعوة التي وجّهها العاهل السعودي إلى رئيس الوزراء العراقي من أجل زيارة الرياض.

واضح أن العراق مستهدف إيرانيا. واضح أكثر أن "الجمهورية الإسلامية" تسعى إلى عزله عربيّا ومنعه من متابعة الحوار الإستراتيجي مع الإدارة الأميركية. ما ليس واضحا رهان إيران على أن في استطاعتها أن تحكم العراق عبر ميليشياتها وأن "الحشد الشعبي" في العراق يمكن أن يلعب دور "الحرس الثوري" في "الجمهورية الإسلاميّة".

العراق لقمة تعجز إيران عن ابتلاعها. سيبقى السؤال المطروح في المدى المنظور في ضوء نجاح العراق في إثبات أنّه يتجه إلى أن يكون دولة طبيعية، هل من سبيل لجعل إيران تستوعب أن عليها الاهتمام بشؤونها الداخلية قبل أيّ شيء آخر؟

أثبت العراق أنّه يسعى إلى أن يكون دولة طبيعية. استقبل البابا فرنسيس قبل نحو ثلاثة أسابيع. زار رأس الكنيسة الكاثوليكية مناطق عراقيّة مختلفة. أكّدت زيارته أن المجتمع العراقي، على الرغم من كلّ ما تعرّض له من هزات داخلية وتمزيق لنسيجه منذ الانقلاب العسكري المشؤوم في 14 تموز- يوليو 1958، ما زال يحتفظ ببعض السمات الحضارية.

يفترض في إيران الاستفادة من بقايا مثل هذه السمات الحضارية في المجتمع العراقي بدل العمل على القضاء عليها عبر ميليشياتها والفكر الذي تحمله. مثل هذا التصرّف قد يخدم النظام فيها أكثر بكثير مما يخدمه السعي إلى الهيمنة على العراق. هل تريد أن تكون إيران دولة طبيعية أم لا، أو بالأصحّ هل تستطيع ذلك؟ أم تعتقد أن لا مستقبل لنظامها إذا لم يستمرّ في ممارسة لعبة الهروب إلى خارج حدوده... إلى العراق أوّلا!

إيران الأمس، وإيران اليوم، وإيران الغد

إبراهيم الزبيدي
كاتب عراقي

يقول التاريخ المشترك بين العراقيين والإيرانيين أن كل ما سال من دماء، وما احترق من بلاد، ومن هُجر من بشر عبر العصور من أجل ترويض العراقيين وامتلاكهم بالقوة ضاع هباء، وسيضيع هباء إلى أبد الآبدين.

ولنبدأ من أول الحكاية. إن كل ما دار من خلاف حول خلافة أبي بكر ثم عمر وعثمان وعلي من بعده، سواء كان بقناعات واجتهادات دينية، أو بطموحات سلطوية سياسية دنيوية كان خلافا عربيا داخليا لم يمنع الإمام علي من تزويج ابنته للخليفة عمر، كما لم يمنع الخليفة عمر من اعتماد الإمام علي مستشاره الأقرب إليه من أي مستشار آخر، وكانت كلمته لدى الخليفة واحدة لم تصبح كلمتين.

وتأسيسا على ذلك تصبح حماسة القوميين الفرس في مقاتلة أحد الفريقين العربيين اللذين اختلفا قبل ألف وأربعمئة سنة على الرياسة، وطلب الثأر من أحفاد أحفاد أحفادهم أمرٌ لا يمكن تفسيره إلا بأنه طمع دنيوي خالص، وحلم استعماري محض لم يتحقق أمس، ولن يتحقق اليوم، ولن يتحقق حتى بعد ألف وأربعمئة سنة أخرى، وأكثر.

فالإمام علي والإمام الحسين والأئمة الآخرون الذين يطلب الفرس الثأر لهم من (أشقائهم) العرب الآخرين أعزّ على العرب من غيرهم، وأثمنُ وأحبُ وأكثر قداسة لدى المتدينين منهم.

ثم إن العرب المسلمين المتقدمين بعد كل ما مرّ من اختلاف واقتتال داخلي بينهم، تمكنوا من طيّ خلافات أسلافهم تلك وتجاوزها، وصاروا يترحمون على من أصاب منهم ويطلبون المغفرة لمن أخطأ.

وها هم اليوم لا يفرقون في محبتهم بين صحابي وصحابي، ولا بين أحد من آل البيت وآخر.

يُمجدون الإمام علي وولديه وأحفاده، ويقدرون ويحبون أبا بكر وعمر وعثمان.

ولكن إصرار الإيرانيين الفرس وحدهم على النفخ في نيران الخلافات المطوية من قرون، ومحاولة إحياء عظامها وهي رميم مضيعة لوقتهم ووقتنا، وإهدار لدماء أبنائهم ودماء أبنائنا، وجهود خائبة لم تستطع إجبار مياه دجلة والفرات على أن تغير مسارها فتّتجه شرقا وليس جنوبا، ولن تستطيع.

ولقد بقي ثابتا في التاريخ أن الفرس أدمنوا شنّ حروبهم على جيرانهم، وعلى العراقيين بشكل خاص، قبل الإسلام وقبل ولادة الإمام علي وولده الحسين بعشرات بل المئات من السنين.

ثم جاء الفتح الإسلامي لبلاد فارس وأدخل أهلها في الدين الجديد، ولو بقوة السيف، ليضيف جديدا إلى المتراكم من الأحقاد المتجذرة في الشخصية الفارسية الاعتيادية، حتى في من دخل منهم الدين الجديد.

وما زال فرسٌ كثيرون يعتقدون بأن ما فعله الفاتحون العرب الأوائل بدولتهم الفارسية لم يكن عملا بأوامر الله ورسوله وآله لإخراجهم من الظلمات إلى النور، بل هو ردٌ عربي عنصري على حروبهم القومية القديمة في الأزمنة المتعاقبة.

ولو دخلنا في تاريخ الحركات السرية التي ظهرت في الأيام الأولى للإسلام، وما زالت تظهر إلى يومنا هذا، لوجدنا أن أكبر تلك الحركات وأقواها وأكثرها قتلا وحرقا وشنقا كانت تولد في إيران، ثم تترعرع وتقوى وتنتشر منها في بلاد المسلمين، وكانت كلها ترتدي غالبا ثياب التقوى والحمية والغيرة على الدين وتُنادي بالثورة على الخلفاء وعُمالهم مستظلة بحب آل البيت الهاشمي طلبا لـ"حقوقهم" التي انتزعت منهم عنوةً كما يزعمون.

ورثة الخميني وأتباع خليفته خامنئي ينسون أن الزمن لم يعد يسمح بولادة إمبراطورية فارسية جديدة لأسباب عديدة في مقدمتها الرفض العفوي المتأصل في الأوساط الشعبية في المنطقة، بما فيها إيران ذاتها، لهيمنة الفكر السلفي الديني وتطلع الشعوب إلى اللحاق بركب البشرية المتقدمة

ألم يحاول الفرس بكل ما توفر لهم من أسلحة ومزاعم تقويضَ الدولة الإسلامية في أيام خلفائها الأول ثم الثاني والثالث، والدولة الأموية من أول أيامها، والعباسية، وفشلوا، وما زالوا يحلمون بيوم السيادة على العرب ولا يتوقفون؟

ومعروفةٌ ولا حاجة إلى تكرارها حكايةُ أبي مسلم الخراساني الذي كان القائد الأول والمرشد الأعلى للجيوش العباسية السرية والعلنية التي أسقطت الدولة الأموية. فقد بسط سلطانه على الدولة الجديدة، وأوشك أن يجعلها فارسية، لولا فراسة أبي جعفر المنصور الذي فتك به وبأعوانه وبَعثَر سلطانه قبل فوات الأوان.

ثم عادوا في زمن هارون الرشيد تحت أجنحة يحيى البرمكي وولديه الفضل وجعفر اللذين أوشكا أن يجعلا الدولة العباسية فارسية خالصة لولا فطنة هارون الرشيد.

إلى هنا والأمر لا يحتاج إلى مزيد من الشرح والتوضيح. فجاهلٌ أو مزورٌ من لا يعتبر ما يفعله الإيرانيون الفرس اليوم في العراق وسوريا واليمن والبحرين ولبنان حروبا قومية عنصرية تنتمي إلى قرون عديدة من السنين. وكما فشلوا بالأمس سيفشلون اليوم وسيفشلون غدا دون جدال.

فلم يسقط العراق وما حوله من دول عربية تحت أقدام الغزاة، لا القدامى ولا الجدد، ولم يُلحق أيٌ منها بإيران كما حدث لعربستان والأهواز.

وينسى ورثة الخميني وأتباع خليفته خامنئي أن الزمن لم يعد يسمح بولادة إمبراطورية فارسية جديدة في المنطقة لأسباب عديدة منها، بل في مقدمتها الرفض العفوي المتأصل في الأوساط الشعبية في المنطقة، بما فيها إيران ذاتها، لهيمنة الفكر السلفي الديني وتطلع شعوب المنطقة كلها إلى اللحاق بركب البشرية المتقدمة التي تنعم بخيرات الحداثة والعلمانية والديمقراطية وسلطة العقل والقانون.

وهناك حقيقة ثابتة تقول إن الأغلبية الساحقة من الشيعة العرب في العراق والخليج ولبنان أصبحت أكثر فهما للدوافع الحقيقية لإيران التي تحاول استدراجهم ا لمعاداة أهلهم وتخريب بلادهم خدمة لأوهام قومية توسعية لا تتحقق. إنهم يحرثون الماء، ويقاتلون الهواء.

العرب
أول صحيفة عربية صدرت في لندن
1977 أسسها
أحمد الصالحين الهوني

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير المسؤول
د. هيثم الزبيدي

رئيس التحرير والمدير العام
محمد أحمد الهوني

مدراء التحرير
مختار الدبابي
كرم نعمة
منى المحروقي

مدير النشر
علي قاسم

المدير الفني
سعيدة اليعقوبي

تصدر عن
Al-Arab Publishing House
المكتب الرئيسي (لندن)
The Quadrant
177 – 179 Hammersmith Road
London, W6 8BS, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للإعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

www.alarab.co.uk
editor@alarab.co.uk